دلالات المشاركة المصرية فى عيد النصر الروسى

(آفاق سياسية، العدد ١٩، يوليو ٢٠١٥)

د. نـورهان الشيـخ*

يعتبر عيد النصر فى الحرب الوطنية العظمى أهم أعياد روسيا الاتحادية وهو مناسبة قومية وشعبية هامة، ومنذ عام ١٩٩٥ يقام عرضاً عسكرياً سنوياً فى الساحة الحمراء احتفالاً بهذه المناسبة، فلم تكن العروض العسكرية تجرى بانتظام قبل ذلك التاريخ حيث كان أول عرض عسكرى عام ١٩٤٥، وأجرى الثانى بعده بعشرين عاماً أى عام ١٩٦٥، ثم كان الاحتفال بالذكرى الأربعين للنصر عام ١٩٨٥. وتعد احتفالات الذكرى الـ٧٠ لعيد النصر الروسى على النازية يوم ٩ مايو الأضخم فى التاريخ الروسى، الأمر الذى جذب الاهتمام وأثار تساؤلات عدة حول دلالاتها خاصة مع مشاركة الرئيس المصرى عبد الفتاح السيسى فى الاحتفال، وكون زيارته الأخيرة هى الثالثة لروسيا فى غضون خمسة عشر شهراً حيث كانت الأولى فى فبراير من العام الماضى كوزيراً للدفاع، والثانية فى أغسطس من نفس العام عقب تولية الرئاسة، الأمر الذى يحمل دلالات عدة يمكن بلورتها فى إطار محورين أساسيين.

أولهما، تأكيد مكانة روسيا والتحول إلى نظام دولى متعدد القوى:

رغم الصعوبات الاقتصادية التى تواجهها روسيا نتيجة انخفاض اسعار النفط فقد تم تخصيص ٢٨,٥ مليار روبل (أكثر من نصف مليار دولار) للإنفاق على الاحتفال، وكان العرض العسكري في الساحة الحمراء بموسكو الأضخم في تاريخ روسيا المعاصرة، حيث شارك فيه أكثر من ١٦ ألف عسكري وحوالي ٢٠٠ من المعدات و ١٥٠ طائرة ومروحية حربية. هذا إلى جانب مشاركة قوات رمزية من جيوش الدول الصديقة لروسيا مثل الصين والهند ومنغوليا وبيلاروس وأذربيجان وأرمينيا وكازاخستان وقرجيزستان وصربيا وطاجيكستان.

وقد حمل هذا فى طياته رسائل عدة. أولها أن روسيا تؤكد للغرب عامة والولايات المتحدة خاصة قدرتها على الصمود ومواجهة الضغوطات والعقوبات التى تحاول من خلالها واشنطن تضييق الخناق على موسكو وإركاعها وعرقلة الصعود الروسى وتمدد نفوذها الدولى والإقليمى على النحو الذى يزعج واشنطن ويهدد مصالحها وخططها الطموحة فى مناطق عدة. كما تؤكد

---

* أستاذ العلوم السياسية – جامعة القاهرة.

روسيا أحقيتها ودورها فى تحقيق النصر فى وقت تحاول واشنطن إعادة كتابة التاريخ على النحو الذى يعطى للولايات المتحدة وبريطانيا الدور الأكبر فى تحرير أوربا والعالم من النازية ويهمش الدور الروسى، وهو ما انتقده الرئيس فلاديمير بوتين بشدة مؤكدا ضرورة الحفاظ على التراث التاريخى للنصر، وأن الهدف الرئيسى للاحتفال بذكرى النصر هو إعادة بسالة وبطولة حماة الوطن إلى أذهان الروس وخاصة الشباب منهم.

فالاحتفال بالنصر ينطوى فى جزء منه على رسالة للشعب الروسى ومحاولة لإنعاش الحس القومى داخله، وأنه كما واجه العدوان بصمود فى الأربعينات، فإنه قادر على الانتصار مرة أخرى على العقوبات والضغوطات الغربية. ومما يذكر إنه بعد انتهاء مراسم العرض العسكرى خرج حوالي نصف مليون مواطن روسي إلى شوارع العاصمة موسكو، في مسيرة تعرف باسم "الفوج الخالد"، حاملين صور ذويهم ممن حاربوا في جبهات الحرب الوطنية العظمى، يتقدمهم الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الذي حمل صورة والده الذي شارك في الحرب، فى تأكيد شعبى على تضامن الداخل الروسى ودعمه للرئيس بوتين فى مواجهة الغرب.

ثانيها، إنه إلى جانب العرض التاريخى لأبرز المعدات التى شاركت فى تحقيق النصر خلال الحرب العالمية الثانية، تضمن العرض العسكري استعراضاً لقدرات روسيا العسكرية والصاروخية الحديثة مثل صواريخ "يارس – ٢٤" العابرة للقارات، ودبابات وعربات المشاة القتالية "أرماتا"، والعربات القتالية "كورجانيتس" و"راكوشكا" و"تايفون"، والطائرات المقاتلة "سو – ٣٤" و"ميغ – ٢٩ أس أم تي"، وقاذفات القنابل الاستراتيجية "تو – ١٦٠"، والمروحيات القتالية "مي – ٢٨ أن" (الصياد الليلي) و"كا – ٥٢ " (التمساح). فقد مثل العرض العسكرى فى واقع الأمر إستعراضاً لقوة الدول الروسية وقدرة جيشها على دحض العدوان وسحق المعتدى، فى إشارة واضحة إلى أن روسيا لن تتهاون مع محاولة الولايات المتحدة اختراق مجالها الحيوى والتلويح بقدرات حلف شمال الأطلسى فى وجه موسكو، بمد ترسانته العسكرية حتى الحدود الروسية المباشرة مع دول أوربا الشرقية وأوكرانيا. فقد مثلت ابتسامة الدب الروسى خلال الاحتفال كشفاً صريحاً عن أنيابه الفتاكة وقدرته على مواجهة أعدائه.

ثالثها، مشاركة زعماء حوالى ٣٠ دولة إلى جانب ٤٠ من الضيوف الأجانب فى مقدمتهم الأمين العام للأمم المتحدة والأمين العام لليونيسكو إيرينا بوكوفايا رغم الضغوط الشديدة التى مارستها الولايات المتحدة على مختلف الدول وخاصة حلفائها لمنعهم من المشاركة فى الاحتفالات الروسية. وكانت قوات من دول حلف شمال الأطلسى منها فرنسا وبريطانيا وبولندا والولايات المتحدة ذاتها قد شاركت لأول مرة فى الاحتفالات الروسية بالذكرة الخامسة والستين للنصر على النازية عام ٢٠١٠. ولاشك أن هذا الحضور الدولى رغم المقاطعة الغربية للاحتفال

رسالة أخرى للغرب بأن روسيا لا يمكن عزلها دولياً وأن لديها أطر ودوائر للحركة لا تقل أهمية عن الدائرة الغربية وأبرزها منظمة شنجهاى للتعاون التى تضم روسيا والصين وأربعة من دول آسيا الوسطى، ومجموعة البريكس التى تضم إلى جانب روسيا كل من الصين والهند والبرازيل وجنوب أفريقيا، يضاف إلى ذلك كومنولث الدول المستقلة ومنظمة الأمن الجماعى وغيرها. فقد كان الاحتفال استعراضاً لشبكة علاقات روسيا الدولية والإقليمية وتأكيداً لمكانتها كقوة كبرى فاعلة على الصعيدين الدولى والإقليمى. وعكس لقاء الرئيسين الروسى والصينى على هامش الاحتفال مستوى التحالف الاستراتيجى بين البلدين، حيث تزامن مع دخول سفينتين حربيتين تابعتين للصين لقاعدة نوفوروسيسك البحرية العسكرية الروسية لأول مرة فى التاريخ للمشاركة فى الاحتفال، وتم توقيع ٤٠ اتفاقية ثنائية بين البلدين فى مجال الطاقة واستكشاف الفضاء والاستثمار. ليؤكد البلدين إنهاء الاحتكار الأمريكى للشأن الدولى والتحول إلى نظام دولى تعددى تلعب فيه روسيا والصين دوراً محورياً ومتزايداً.

ولعل الرسائل السابقة كان لها أكبر الأثر فى التغير النسبى فى الموقف الأمريكى وبعض المرونة التى أبدتها، وعكستها زيارة وزير الخارجية الأمريكى جون كيرى لروسيا ولقاءه الرئيس بوتين فى سوتشى يوم ١٢ مايو والذى استمر لأكثر من أربع ساعات، ويعتبر الأول بعد قطيعة دامت عامين منذ إلغاء زيارة أوباما لموسكو والتى كان المقرر لها سبتمبر ٢٠١٣، بسبب منح موسكو حق اللجوء لإدوارد سنودن مسرب المعلومات السرية حول برامج التنصت الإلكتروني للاستخبارات الأمريكية، رغم احتجاجات واشنطن ومطالبتها بتسليمه لها ثم ما أعقب ذلك من توتر فى العلاقات الروسية الأمريكية على خلفية الأزمة الأوكرانية. فقد وصف كيري روسيا والولايات المتحدة بـ"الدولتين المتحالفتين" في السعي إلى عقد "اتفاقات جيدة" بشأن البرنامج النووي الإيراني وتطبيقها. وأكد كيري تمسك الولايات المتحدة باتفاقات "مينسك" كطريق رئيسي نحو السلام في أوكرانيا، وحذر ضمنيا الرئيس الأوكراني بيترو بوروشينكو من شن أي عملية عسكرية في جنوب شرق البلاد بقوله إنه "إذا كان الرئيس بوروشينكو يدعو إلى بدء عمليات عسكرية فنحن كنا سنوصي له بالتفكر مليا قبل أن يقدم على هذه العمليات". وشارك كيرى مع نظيره الروسى سيرجى لافروف، في مراسم وضع أكاليل من الزهور على النصب التذكارى لضحايا الحرب الوطنية العظمى في المقبرة التي دفن فيها أكثر من ألفي جندي من الجيش الأحمر الروسى. وعقب زيارة وزير الخارجية الأمريكي جون كيري إلى سوتشي توجهت مساعدته لشئون أوروبا وآسيا فيكتوريا نولاند الى موسكو لبحث اتفاقيات مينسك لتسوية الأزمة الأوكرانية.

ثانيهما، ثبات التوجه المصرى نحو روسيا وتوثيق الشراكة المستقبلية بين البلدين:

إن مشاركة الرئيس عبد الفتاح السيسى فى احتفالات روسيا بعيد النصر له دلالة خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين البلدين. فقد كان الرئيس المصرى هو الرئيس العربى الوحيد الذى حضر الاحتفال إلى جانب الرئيس الفلسطينى محمود عباس. ولاشك إن توجيه موسكو الدعوة لمصر تؤكد مكانتها وعودتها كمحور ارتكاز فى السياسة الروسية فى المنطقة. ومن المعروف أن مصر كانت البوابة التى دخلت منها روسيا إلى المنطقة العربية خلال الخمسينات والستينات وعبرها توطدت علاقات موسكو مع كل المعسكر الثورى العربى الذى ضم سوريا والعراق وليبيا والجزائر واليمن. وعقب الثورات العربية وحالة عدم الاستقرار التى اجتاحت الحلفاء التقليديين لموسكو تبقى مصر الشريك الرئيسى لروسيا خاصة مع الفتور النسبى فى العلاقات الروسية الخليجية على خلفية تناقض مواقف الجانبين من سوريا. فمصر هى الدولة التى نجت من براثن المخطط الأمريكى الأخوانى لتقويض الدول العربية الكبرى والمؤثرة فى المنطقة، وتوطين الارهابيين والمتطرفين من أوربا وغيرها فى بلادنا، ولمحة على الخريطة العربية تبين حجم المآساة حيث تغرق العراق وسوريا ومعها ليبيا واليمن فى الإضطرابات لتشكل جميعاً حزام من عدم الاستقرار يهدد ليس فقط الدول العربية الأخرى، ولكن الدول الكبرى المعنية بأمن واستقرار المنطقة وفى مقدمتها روسيا. ويترك هذا مصر باعتبارها رافد أساسى لاستعادة الاستقرار فى المنطقة، يعزز ذلك تطابق رؤي البلدين، مصر وروسيا، حول خطورة تحدى الارهاب وحتمية مواجهة التنظيمات المتطرفة واقتلاعها من المنطقة.

من ناحية أخرى، تعتبر هذه هى المرة الأولى التى يشارك فيها رئيس مصرى فى مثل هذا الاحتفال ويحضر العرض العسكرى المهيب فى الساحة الحمراء بموسكو. وأتت المشاركة المصرية فى ظروف دولية وإقليمية بالغة الحساسية، وفى وقت ضغطت واشنطن على حلفائها والدول التابعة لها لعدم المشاركة على النحو السابق الاشارة إليه، الأمر الذى أكد استقلالية القرار المصرى، وأن توجه مصر نحو روسيا ليس مجرد نزوة عابرة كما كانت تأمل الولايات المتحدة وتتخوف روسيا، وإنما تحالف وثيق يزداد قوة ومتانة فى مختلف المجالات. فقد بددت المشاركة المصرية المخاوف الروسية واحبطت التوقعات الأمريكية، وأكدت أن هناك عزم حقيقى على بناء شراكة استراتيجية وطيدة ممتدة مع روسيا.

كما تعكس المشاركة المصرية أيضاً نضج العلاقة بين البلدين وأن التباعد النسبى فى المواقف من الأزمة اليمنية لم يؤثر على التوجه العام الحاكم للعلاقة بينهما. فمنذ بدأ "عاصفة الحزم" فجر الخميس ٢٦ مارس، أبدت روسيا قلقاً واضحاً إزاء ما يجرى وتداعياته المستقبلية

على استقرار المنطقة. وأكدت أهمية الوقف الفوري للقتال في اليمن، وضرورة تفعيل الجهود، بما في ذلك جهود الأمم المتحدة، لبلورة حلول سلمية للنزاع اليمنى، وإطلاق حوار واسع بمشاركة جميع القوى السياسية والدينية في البلاد. كما أبدت روسيا قلقاً شديداً من اتساع نطاق المعارك وإمتدادها إلى دول أخرى، ومن إمكانية تورط قوى إقليمية، فى مقدمتها إيران، فى الصراع وتحوله إلى حرب إقليمية واسعة النطاق على مقربة منها. إلا إن الموقف الروسى المتخوف نسبياً من العمليات العربية فى اليمن والتى تساندها مصر لم يلقى بظلال على العلاقات المصرية الروسية. ومن الواضح أن كلا البلدين يتبنى نهج "المتوازيات" فى سياسته الخارجية ويحاول التركيز على نقاط الألتقاء والمصالح المتبادلة وتنحية اختلاف وجهات النظر فى بعض الملفات خاصة مع محدوديتها.

ولاشك أن اللقاءات المتكررة بين القيادة السياسية للبلدين كان لها دور كبير فى بلورة مثل هذا التفاهم حيث ألتقى الزعيمين أربع مرات خلال خمسة عشر شهرا. وكان الرئيس السيسى أول رئيس دولة ممن وجهت لهم الدعوة لحضور الاحتفال يلتقى الرئيس الروسى فلاديمير بوتين، كما أن الجانب الروسى وافق على أن يمتد اللقاء لمدة إضافية. وإلى جانب هذا التفاهم الشخصى بين القيادتين المصرية والروسية تبرز المصالح الحيوية التى تربط البلدين معاً فى مختلف المجالات خاصة على الصعيد العسكرى والاستراتيجى وفى مجال مكافحة الارهاب الذى توليه البلدان الأولوية. وقد كان تركيز القيادة الروسية واضحاً على محاربة التطرف عندما قال: "لقد خرج العفريت من القمقم ولايمكن تجاهل الأمر ولابد من محاربته... ليس فقط التطرف الاسلامى فهناك متطرفين كثر فى العالم المعاصر"، فى إشارة إلى التيارات المتطرفة وما يطلق عليهم النازيين الجدد فى أوكرانيا والذين يمثلون تهديد مباشر للروس والمصالح الروسية بها.

٣. ماذا عن المستقبل:

فى ضوء ما سبق من الواضح أن العلاقات المصرية الروسية تتجه نحو شراكة أعمق تجد فى المصالح المتبادلة للطرفين قاعدة صلبة لها. وهو ما أشار إليه الرئيس السيسى صراحة حين أكد خلال مباحثاته مع الرئيس بوتين على هامش الاحتفال بعيد النصر "أن مصر وروسيا لديهما الكثير الذي يمكن عمله معا والتعاون لتحقيق الازدهار للبلدين والشعبين... وأن العلاقات بين البلدين طيبة وتتقدم اكثر واكثر". يعزز هذا التوجه النقلة النوعية التى شهدها التعاون فى المجال العسكرى الذى ظل لعقود بطيئاً ومحدوداً. فلأول مرة تُعقد اللجنة المشتركة للتعاون العسكري التقني بين مصر وروسيا مطلع شهر مارس بموسكو، وتم فى إطارها توقيع بروتوكولا للتعاون العسكري بين البلدين واتمام الصفقات التى جرى التشاور بشأنها، وبحث صفقات جديدة ستعزز

حتماً من القدرات العسكرية المصرية وتسهم بفاعلية فى تحديث الجيش المصرى وإمداده بمنظومات دفاعية متقدمة تحد من حالة الانكشاف الاستراتيجى التى تعانى منها مصر منذ بدء التعاون العسكرى مع الولايات المتحدة. وقد شاركت مصر فى معرض الأسلحة الروسية "جيش ٢٠١٥" الذى نظمته وزارة الدفاع الروسية بمشاركة كبرى شركات الأسلحة الروسية عقب احتفالات عيد النصر، وضم ما يزيد عن ١٢٠ من المنظومات العسكرية الحديثة.

هذا إلى جانب توقيع مجموعة من الاتفاقات التى مثلت نقلة نوعية فى العلاقات بين البلدين وتسهم على نحو مباشر فى تلبية الاحتياجات والطموحات المصرية الآنية والمستقبلية، أبرزها اتفاق إنشاء المحطة النووية المصرية لتوليد الكهرباء في منطقة الضبعة بين البلدين. وقيام وفد روسي متخصص في مجال الطاقة النووية بزيارة إلى المنطقة المقرر إقامة المشروع بها، صاحب ذلك عقد الملتقى المصري الروسي الأول في التطبيقات النووية السلمية بمشاركة أكثر من ثلاثين خبيراً روسيا في المجال النووي.

وبحث التعاون فى مجال الفضاء وإعداد وتدريب خبراء مصريين على إطلاق قمر صناعي جديد، هو الثاني في تاريخ التعاقدات بين الدولتين في مجال تكنولوجيا الفضاء. أيضاً الاتفاق على إنشاء منطقة تجارة حرة بين مصر والاتحاد الاقتصادي الأوراسي الذى يضم روسيا وبيلاروس وكازاخستان وأرمينيا، الأمر الذى يفتح أسواق جديدة أمام المنتجات المصرية ويعزز الصادرات المصرية لروسيا. كما تم الاتفاق على مشاركة روسيا فى المشروع المصرى لإنشاء المركز اللوجستى العالمى لتخزين وتداول الغلال والحبوب، ومن المعروف أن روسيا تمد مصر بنحو ٤٠% من احتياجاتها من القمح بقيمة ١.١ مليار دولار. والاتفاق على انشاء المنطقة الصناعية الروسية المتخصصة في الصناعات المغذية للسيارات والطائرات والحاسبات الالكترونية وبعض السلع الهندسية فى منطقة عتاقة بمحور قناة السويس. وتأتى زيارة وزير الصناعة والتجارة الروسى، دينيس مانتوروف، لمصر يومى ٢٥ و٢٦ مايو علي رأس وفد يضم أكثر من ٢٠٠ من قيادات كبرى الشركات والهيئات الاقتصادية الروسية لتؤكد استمرار نهج البلدين نحو تنشيط التبادل التجارى والتعاون فى المجال الصناعى.

ومن الواضح أيضاً أن السياسة المصرية تتجه نحو تنويع شراكاتها وأيقنت أخيراً أن العالم أوسع كثيراً من التوجه الغربى، وأن هناك فرص فى دول ومناطق أخرى تستحق المبادرة والتطوير. فالمشاركة المصرية فى احتفالات عيد النصر الروسى كانت أشبه بنظيرتها فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ التى اتاحت للقيادة المصرية آنذاك فرصة التقارب مع عدد من الدول الآسيوية الهامة وفى مقدمتها الصين والهند والتأسيس لتوجهات جديدة فى السياسة الخارجية المصرية. فعلى هامش احتفالات عيد النصر أجرى الرئيس السيسى سلسلة من اللقاءات مع عدد

من الرؤساء، فى مقدمتهم رئيس الصين "تشى جين بينج"، ورئيس فيتنام "ترونج تان سانج"، ورئيس كازاخستان "نور سلطان نزاربابيف"، ورئيس طاجيكستان "إمام على رحمانوف"، ورئيس منغوليا "تشياغين البجدورج"، ورئيس فنزويلا "نيكولاس مادورو"، ورئيس جمهورية التشيك "ميلوش زيمان"، ورئيس الهند "براناب موخرجى"، ورئيس أرمينيا "سيرج ساركسيان".

وهناك آفاق رحبة للتعاون مع هذه الدول والتأسيس لشراكات اقتصادية تخدم المصالح المصرية والتنمية المنشودة فى مصر. وعلى سبيل المثال، اتفق الرئيسين المصرى والفيتنامى على عقد اجتماع للجنة المشتركة بين البلدين خلال الربع الثالث من عام ٢٠١٥، لبحث سبل تعزيز التبادل التجارى والتعاون الاقتصادى بين البلدين، بحيث تستفيد مصر من امكانات فيتنام كمعبر للمنتجات المصرية إلى باقى دول جنوب شرق آسيا والآسيان، ومن التجربة الفيتنامية فى إقامة المناطق الصناعية والاستزراع السمكى والمشروعات الصغيرة والمتوسطة وتستفيد فيتنام من موقع مصر المتميز وقربها من أسواق التصدير الأوروبية والأفريقية والعربية. وكانت فيتنام قد شاركت فى المؤتمر الاقتصادى بشرم الشيخ وأبدت اهتمام بدفع التعاون الاقتصادى مع مصر.

إن احتفالات عيد النصر والمشاركة المصرية بها تؤكد أن تغيرات جوهرية فى التحالفات الدولية والإقليمية قد نضجت وبرزت على السطح، وأن تغيرات أعمق قادمة فى المستقبل المنظور.